

كيف نظر نوري جعفر

إلى مصادرة الحريات من قبل المؤسسة الدينية وأتباعها؟

ياسر جاسم قاسم



نوري جعفر

المبادئ:هي مجموعة الافكار التي تربط بينها وحدة الاتجاه في تفسير الظواهر الاجتماعية وغير الاجتماعية التي يتصدى ذلك المبدأ للبحث فيها. أي ان المبدأ بعبارة اخرى لا يتكون بمجرد وجود عدد من الافكار قل او كثر غير المترابطة من حيث علاقاتها الداخلية ببعضها ومن حيث انسجامها في ما يتصل بوحدة الاتجاه فالترابط بين الافكار وانسجامها هو الذي يكون المبدأ ذلك لان الافكار بحد ذاتها وان كانت شرطا رئيسا لتكوين المبدأ إلا أن المبدأ لا يتكون بمجرد توافرها والعلامة نوري جعفر بنظره ان المسيحية مبدأ وكذا الاسلام والبوذية والديمقراطية مبدأ وكذا الشيوعية والنازية وما يجري مجراها وتختلف المبادئ فيما بينها من حيث الاساس في ناحيتين هما :

سعة المبدأ وعمقه   أي بعبارة اخرى بمقدار الظواهر الاجتماعية وغير الاجتماعية التي يعالجها ذلك المبدأ من جهة والمدى الذي يتعرض له ذلك العلاج من جهة اخرى .اما الناحية الثانية التي يعالجها نوري جعفر التي تختلف فيها المبادئ فهي المصدر الذي ينبثق عنه فمصدر المسيحية مثلا سماوي بنظر حملتها .على حين ان مصدر الديمقراطية ارضي بنظر اصحابها وكذلك الشيوعية تختلف عن الديمقراطية فبالنتيجة نستطيع ان نقول ان المبادئ تنقسم قسمين من حيث مصدرها بنظر حملتها مبادئ سماوية ومبادئ ارضية كما تنقسم كذلك من حيث سعتها وعمقها في البحث الى مبادئ واسعة عميقة ومبادئ ضيقة سطحية ،هذا مع العلم ان السعة والعمق امران نسبيان .

كما يعرض نوري جعفر لفقرات من الدستور العراقي المكتوب في العهد الملكي ومنها الفقرة السادسة :لا فرق بين العراقيين امام القانون وان اختلفوا في القومية والدين واللغة ويذكر المواد المتعلقة بالحريات من حرية ابداء الرأي والنشر والاجتماع وتاليف الجمعيات والانضمام اليها ويركز كثيرا على عرض فقرات الدستور وذلك لانه اعتبر ان الدستور كوثيقة هي عبارة عن مبدأ او مجموعة مبادئ تتفق عليها الامة ، وعرض نوري جعفر هذا لمواد الدستور مركزا فيها على المواد المتعلقة بجوانب الحريات الشخصية وصيانة هذه الحريات ومواد المساوات بين كل العراقيية والسيادة للامة على نفسها . مبتغيا من وراء ذلك ان يركز المتلقي على جوانب المبادئ التي تخص الحريات الاساسية. كما يعرض من باب المبادئ حقوق الانسان الذي وضعته هيئة الامم ويركز على هذه الحقوق التي تخص المساواة والحريات ، ومما يميز قراءة نوري جعفر هذه انه يقارن بين المبادئ النظرية التي تضمنها الدستور العراقي الملكي ووثيقة الامم المتحدة وبين واقعها العملي وتصرفات من يدعون انهم يحملونها من ذوي النفوذ وهذا ما سندخل في تفاصيله فيما بعد من هذا الفصل.

والمبدأ في نظر نوري جعفر كالكائن الحي من حيث نشوؤه وضعفه واندثاره يبدأ ضعيفا فاذا كتب له النصر وصادفته ظروف عامة محلية وعالمية ملائمة نما وانتشر وازدهر فالمبادئ تظهر ضعيفة من الناحية المادية ليست لدى اصحابها او حملتها قةو مادية كبيرة في الرجال او السلاح او المال بالنسبة لخصومهم لنشرها بين الناس ولهذا نجد حملتها يستندون لغرض التبشير بها في هذه المرحلة من مراحل نشاطهم المادي والفكري على المنطق النظري والمناقشة والاقناع بوجاهة مبادئهم وخطل المبادئ التي يناوئونها وتتسع الدعوة الى المبدأ الجديد مع الزمن كلما كثر عدد المؤمنين به .ويتم ذلك بالطبع على حساب المبدأ الذي يناوئونه فضعف احدهما معناه قوة الاخر . فاذا كتب البقاء للمبدأ الجديد فانه ينتقل بعد ان يصبح له اتباع ومؤيدون الى المرحلةالثانية : ويسميها نوري جعفر ((مرحلة الاستناد الى النار والحديد)) وهي تسمية خطيرة جدا اذا ما قارنها بالاسس التي نشأت عليها الأديان أي قوة السيف والسلاح .وهذا يعني انه ينتقل الى المرحلة الثانية ،القوة المادية المسلحة ويتوقف نجاحه في هذه المرحلة على ضعف القوة او القوى التي تنازعه البقاء فاذا كتب له الظفر فان ذلك يؤدي الى تقوية الاقلية التي تحمله تقوية مادية ومعنوية ،تلك الاقلية التي جمعتها وحدة الايمان بالمبدأ الجديد او وحدة المصالح المشتركة التي تتمثل في الدفاع عنه ماديا وفكريا، بالسيف والقلم واللسان، الامر الذي تنبثق عنه اكثرية تابعه بمرور الزمن رغبة او رهبة وتتكرر المرحلتان الآنفتا الذكر بالتتابع اذا ما حاول اصحاب المبدأ الجديد الخروج عن الحدود الجغرافية للموقع الذي نشأ ذلك المبدأ فيه، وهنا يضع نوري جعفر مقارناته الخطيرة عندما اعتبر ان الاسلام اجتاز المرحلتين الانفتي الذكر في النطاق المحلي والواسع على السواء واجتازت الديمقراطية والشيوعية المرحلتين المذكورتين في النطاق المحلي واجتازتا المرحلة الاولى في النطاق العالمي ،وهما الانفي المرحلة الثانية في هذا النطاق الواسع الكبير. فبالتالي المبادئ الناشئة حسب رؤية نوري جعفر تبدأ ضعيفة ثم تقوى شيئا فشيئا يقومها من هو منتفع من المبادئ السابقة ويحتنها من هو سينتفع بالمبادئ الجديدة وسرعان ما تنهار المبادئ القديمة اذا ما كتب الظفر للمبدأ الجديد هذا بغض النظر عن المفاضلة بين القديم والجديد وبغض النظر كذلك عن سلامة الجديد او عدم سلامته من الناحية العملية.

كما يعرض نوري جعفر الى الجوانب النفسية في حالتي الثواب والعقاب وضرب الامثال اثناء السلم والحرب التي يستند اليها من حيث الاساس اصحاب المبادئ الجديدة او المبشرون بها في الاسلام فيذكر كل ايات العقاب الواردة في القران وكذلك ايات الثواب وكذلك الايات التي تدل على الحرب ولبس لامته . ويعتبرها جوانب نفسية بحته استثمرت نوازع الخوف والامل في ان واحد عن طريق العقاب والثواب للافراد الذين تناجيهم.

ويربط نوري جعفر ربطا مهما بين المبادئ والدعوة الى الاصلاح للاوضاع القائمة الفاسدة بمقاييس حملة المبادئ فوسيلة اصلاح المجتمع الفاسد عن طريق المبدا الديمقراطي تختلف كثيرا عن وسيلة اصلاحه عن طريق الشيوعية أي ان المبادئ ذات اهداف عامة متقاربة من حيث الاساس غير انه لا تتفق دائما في الوسائل .

كما يعتبر نوري جعفر ان قضية تغيير بعض المبادئ



القائمة في الدولة كالدساتير وبعض القوانين من اجل الاصلاح للاوضاع القائمة لهو امر اساسي وضروري ،وكانما هو يناغم مرحلتنا الحالية ،فلا ضير ان يغير بعض فقرات الدستور او بعض القوانين في سبيل ارساء بعض الاصلاحات المهمة في البلاد والا نبقى على الاوضاع الفاسدة القائمة بحجة عدم استطاعتنا تغيير الدستور .ويعرض لبعض جوانب تعديل الدستور الامريكي ولما لهذا التعديل من اهمية لانه اتاح قدر اكبر من الحريات ومنها تعديل المادة التاسعة عشرة منه في عام ١٩٢٠م وفيها ادخل حق المرأة في التصويت لانتخاب اعضاء مجلس النواب .ثم ان نوري جعفر يبحث عن الجوانب التطبيقية للمبادئ ويحث على ايجادها والا تكون المبادئ هي عبارة عن حبر على ورق، فالغاية من ايجادها هو التاثير في سلوك الجنس البشري الحاكمين والمحكومين على السواء عن طريق تطبيق نصوصها. وعلى هذا الاساس يمكننا ان نقول انه لا قيمة للمبادئ مهما بلغت من السمو في محتوياتها النظرية من الناحية الواقعية اذا لم يتسن لتلك المبادئ ان تتبناها فئة من الناس نظريا وعمليا. كما ويشير نوري جعفر اشارة سايكولوجية مهمة تتعلق ببناء الانسان كاساس لبناء المجتمعات وهي ان المبادئ نستطيع ان نضخها للمجتمع عبر تغذيتها للاطفال الذين ينشاون بحكم تفاهتهم بمقاييس الكبار من الناحيتين المادية والمعنوية مزودين بمرونة الخضوع للمبدا الجيد اما غرس المبادئ في الكبار المعتادين على اخلاقيات مجتمع معين فهذا امر يتطلب الكثير من المجهود. وينبغي ملاحظة سلوك الافراد كدلالة دالة على تشربهم بالمبادئ الجديدة ومدى التزامهم بها ، وينبه نوري جعفر انه اذا كتب النصر للمبدأ الجديد انضوى تحت لوائه (بالاضافة الى المؤمنين به ايمانا صافيا) بعض الوصوليين او الانتهازيين حفظا لمصالحهم القديمة او املا بالانتفاع في كسب مغانم جديدة كما ان هؤلاء الانتهازيين يكونون من اكثر الناس محافظة على المبدأ الجديد لضمان مصالحهم فتبدأ حالات صراع مجتمعية بينهم وبين الناس بدعوى حفاظهم على المبادئ الجديدة وبالتالي فهم لا يختلفون عن سابقيهم من العهد القديم. ويعلق نوري جعفر على هذه المسالة قائلا بما نصه((فكأن التاريخ البشري ،من ناحية المبادئ والرجال ،صراع بين فئات من الناس ترتبط كل منها بروابط فكرية خاصة –يسميها كارل مانهايم- في علم الاجتماع detached perspectives فاذا انتصرت فئة ما على من ينافسها فان ذلك يعني انتصار المبدأ الذي تؤمن به او تتظاهر بانها تؤمن به . وهذا يتضمن ان يصبح المبدأ المنتصر هو المبدأ السائد على ما يرى نوري جعفر في المجتمع فيخضع له السكان راضين او متذمرين اما من الناحية الفكرية فيعتبر نوري جعفر ان القائمين على المبدأ القديم يسعون الى تقوية ايمان الناس بالمبدا السائد الذي يرتكز عليه النظام القائم، ومما يجعل مهمتهم ليست بالعسيرة هو ان اغلبية الناس لا تميل الى تغيير ما الفته من عقائد وتقاليد ، واذا كانت جماهير الناس بالعهد البدائي (الذي مر به الجنس البشري لاتميل الى تغيير وسائلها المادية واساليبها الآلية في الحياة وهو ما يطلق عليه اسم: technological piety دع عنك مبادؤها في الدين والسياسة والاخلاق فان الانسان الحديث ما زال رغم تحرره من الخضوع للجانب الالي غير راغب من الناحية النفسية في تبديل عقائده وافكاره بشكل سريع .وفي هذا يشير نوري جعفر ومن خلال هذه الافكار الى ان الناس يالفون ما طبعوا عليه او كما يسميه سلامة موسى ان الناس الفوا الكسل فلا يستطيعوا التغيير لمجمل افكارهم وعقائدهم لذلك فان التغيير الفكر او المبدا السائد باخر افضل منه يعتبر من الشجاعة والاستطاعة الانسانية القوية لذلك ربط نوري جعفر المبادئ بالرجال ، والرجال حسب رؤية نوري جعفر ينقسمون قسمين من ناحية صلتهم بالمبادئ :اصحاب المبادئ بغض النظر عن نوعها وسلامتها ، والوصوليون او الانتهازيون الذين مبدؤهم عدم قبول مبدأ معين اللهم الا مبدأ اللامبدأ . اما اصحاب المبادئ فيصنفهم نوير جعفرالى قسمين :اصحاب المبادئ الفاضلة أي التي تهدف الى نشر العدالة الاجتماعية بين الناس ورفع مستوياتهم المادية والفكرية دون تمييز الا على اسا س الايمان بها ،واصحاب المبادئ الفاسدة . وهنا يقول نوري جعفر بما نصه معلقا على هذه الافكار : ((وعندي ان علي بن ابي طالب يقع في قمة الصنف الاول .ويقع الشيطان (كما جاءت سيرته في القرآن) في قمة الصنف الثاني)) ونوري جعفر قد تحدث عن مبادئ علي بن ابي طالب في عدد من الكتب منها (علي ومناوؤه) (والصراع بين الامويين ومبادئ الاسلام) و(فلسفة الحكم عن الامام) حيث ان قراءته لعلي بن ابي طالب قراءة بشرية له وليست من جانب تقديسي وهذا هو المهم في الامر ان نعتبر الشخوص الانسانية ضمن مستوى التاريخ وليس الميتاتاريخ .ويعتبر نوري جعفر ان الشيطان صلب في الدفاع عن عقيدته على الرغم من سخافة عقيدته بمقاييسنا الاسلامية –على حد تعبيره- ويذكر من القران الايات التي ذكر بها الشيطان .

العلامة نوري جعفر كان مبتغاه من ذكر الشيطان كمثال على اصحاب المبادئ الفاسدة ان تكون حالة الشيطان عمومية وباعتباره رمزا للفساد والمبادئ الفاسدة .ولكن كان من الاولى به ان يذكر مثالا واقعيا اكثر باعتباره يتناول جانبا موضوعيا وباعتباره كذلك قد تناول جانبا واقعيا في ضربه المثال حول اصحاب المبادئ الفاضلة ومنهم علي بن ابي طالب الذي اعتبره في قمة الصنف الاول. فكان من الاجدر بالعلامة نوري جعفر ان يضع مثالا حيا عن اصحاب المبادئ الفاسدة وليس الشيطان باعتباره يقع ضمن عنصر الخيال والمتلقي يريد شاهدا واقعيا من ارض الواقع .

. لقد مر بنا القول ان نوري جعفر اعتبر الديمقراطية مبدأ من المبادئ حالها حال الاسلام والشيوعية واليهودية وغيرها ثم انه يركز على المبدأ الديمقراطي تركيز مباشرا ويذكر كيفية اهتمام بعض الدول به بالنصوص دون المضمون على مر الازمان ويضرب مثالا في وثيقة الاستقلال الامريكي التي ينص احد بنودها على ان :الناس يخلقون احرارا متساوين في الحقوق وان الحكومات قد أنشئت لتحقيق العدالة والحرية وان مخالفتها لتحقيق ذلك تستلزم ان يستبدل بها الناس غيرها في حين التناقض كان واضحا الى حد العصر الحديث من تمييز واضح وكبير بين السود والبيض في الولايات المتحدة الامريكية والتي يشير اليها نوري جعفر بشدة باعتبارها كانت موجودة في عهده بالولايات المتحدة، أما الآن فهي موجودة ولكنها مضمرة ومنها ظاهرة الاتجار بالبشر التي تركز على العنصر الاسود دون الابيض .في الولايات المتحدة او افريقيا او غيرها حتى وصلت هذه الظاهرة الى معدلات خطيرة في العالم وقد اشارت اليها الامم المتحدة مؤخرا. كذلك يشير نوري جعفر الى التناقض الذي حصل على مستوى الامم المتحدة بين النصوص الديمقراطية التي تحويها شرعتها وبين التطبيق الفعلي، وأخيراً يشير الى التناقض الذي حصل على عهده بين المبدأ النظري الذي اسس عليه الحكم في العراق كما جاء في الدستور الملكي وبين تصرفات القسم الكبير من المسؤولين ،فهو يشير الى ان الدستور العراقي قد ركز على حرية الفرد في انتخاب نوابه وعلى عدم التمييز بين العراقيين في المعاملة والتوظيف على أساس اللغة او العنصر او المذهب او الدين في حين اننا نسير ،من الناحية العملية بالاتجاه الذي رسمه لنا الشاعر العربي حين قال:

هوى ناقتي خلفي وقدامي الهوى
واني وإياها لمختلفان

وبالتالي فنوري جعفر يحاكي هذا الزمن مطلقا كما كان، فكان التاريخ يعيد نفسه فاليوم في العراق دستور وقانون ينص على حرية العراقي بالتعبير وعدم التمييز وكفالة المواطن العراقي في حين ان التطبيق شيء آخر بعيد كل البعد عن حقوق الانسان وحرية الانسان ومازال العراقيون الى اليوم يعانون الاستبداد الظلم والتعسف والحيف، على الرغم من وجود الديمقراطية كمبدأ في العراق ولكنه حبر على ورق ولم يفعل بشكله الحقيق الى اليوم وانما بشكله الظاهري فقط ،فكم نحن بحاجة الى اعادة قراءة نوري جعفر مرارا وتكرارا، فلسان حاله يقول ،على الساسة ان يطبقوا مبادئ الدستور والديمقراطية لا ان تبقى حبرا على ورق.



عرض نوري جعفر لفقرات من الدستور العراقي المكتوب في العهد الملكي ومنها الفقرة السادسة :لا فرق بين العراقيين امام القانون وان اختلفوا في القومية والدين واللغة ويذكر المواد المتعلقة بالحريات من حرية ابداء الرأي والنشر والاجتماع وتأليف الجمعيات والانضمام اليها ويركز كثيرا على عرض فقرات الدستور وذلك لانه اعتبر ان الدستور كوثيقة هي عبارة عن مبدأ او مجموعة مبادئ تتفق عليها الامة